الدعوة الى الحق والدعوة الى الباطل

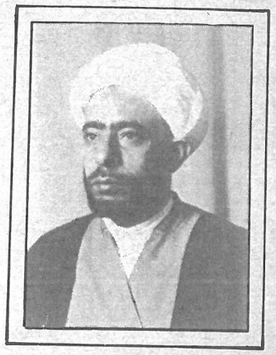

المحاضرة
الثالثة والثلاثون
لفضيلة
الشيخ سليمان المدني

قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه المجيد «له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال».

شبه سبحانه الدعوة إلى الباطل كرجل يقف على ساحل الماء يمد كفيه الى الماء ويطلب من الماء أن يصل إلى فاه دون أن يكلف نفسه بغرف الماء بالكفين وإيصاله إلى فمه ولا شك أن قوانين الكون كلها تأبى أن يبلغ هذا الماء الذي في الساقية إلى فم العطشان ما لم يغترف بيديه أو بإناء معنى ذلك أن الدعاة إلى الباطل إنما يحاولون أمراً لا يمكن أن يتم لهم ولا يمكن أن يقبل منهم فالدعاة إلى الباطل ليسوا دائما خالين من الانتساب إلى الله سبحانه وتعالى.. ربما يتشدقون أيضاً بأنهم يدعون إلى الله ولكن الله سبحانه وتعالى يقول «له دعوة الحق» فإذا كانت الدعوة حقاً وإذا كانت الدعوة إلى حق فنسبتها إلى الله صحيحة، وأما إذا لم تكن إلى الحق فنسبتها إليه غير صحيحة بل هي دعوة من دونه...

ومن دون الله سبحانه وتعالى ربما كان وثناً أو صنماً أو ديناً مصطنعاً أو عقيدة باطلة أو سلوكاً مخالفاً لما أراد الله سبحانه وتعالى لعباده.

الدعوة الى الحق يجب ان تكون سائرة على النهج الذي يريده الله لعباده وهو الدعوة الى جوهر الشريعة والتوحيد

فاذاً ونحن نريد أن نجعل من أنفسنا دعاة للناس إلى هذا الدين الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسله وأنبيائه وختم به نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله ونريد أن نجعل من أنفسنا تلك الامة الوسط التي تكون شاهدة على الناس لا بد لنا أن نعرف ما هي دعوة الحق ومن الذي يقوم بها حتى نميز ما هو حق مما هو باطل ونميز دعاة الحق عن دعاة الباطل فإن الشبه في هذا المجال اكثر من أن تكتشف بدون تمعن وبدون تا مُل في الفكر.

والدعوة في اللغة لعلها واضحة عند الجميع وهي بمعنى الدعاء أو الاستدعاء أي طلب الشيء.. تقول دعوت فلاناً أي طلبت منه فعل شيء أقل ما يكون الحضور إلى البيت مثلاً فالدعوة إذاً بمعنى الدعاء أو الاستدعاء والحق يكون أسماً من أسماء الله سبحانه وتعالى فيكون أسماً لكل ما هو واقعي ثابت فكل شيء ثابت غير قابل للبطلان يقال له حق، والمقصود به في هذه الآية الكريمة هو دين التوحيد الخالص فإنه الدين الذي لا يعقل أن يظهر بطلانه في يوم من الأيام وهو الأمر الواقع غير القابل للنقض ومن اجل ذلك سمي دين الحق وسمي دعوة الحق.

هذا الحق أو هذه الدعوة هي تكون من الله سبحانه وتعالى لخلقه «له دعوة الحق» فهو سبحانه وتعالى يدعو إلى الحق، ولكن هذه الدعوة بلغها للناس أناس من مثلهم من البشر وهم الأنبياء (ص) وجعلها أتباع الأنبياء إلى سائر الأمم، وأتباع الأنبياء منهم من هو مخلص لتلك الدعوة..

ومنهم من يستغل تلك الدعوة لمارب في نفسه.. فإذا حتى لو دعى إلى ما هو حق ولكن قصده في ذلك لم يكن سليماً كقصد الأنبياء (ص) لا تكون تلك الدعوة حقاً ولا تكون تلك الدعوة لله بل هي دعاء من دونه فهو يحاول أن يوجد شيئاً يقربه إلى الله سبحانه وتعالى بطريق لا يرتضيه الله فلا يمكنه القرب من الله فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه.

إذاً العنصر الأول في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى أن يكون القصد ممن يحمل رسالة الأنبياء ليبلغها إلى غيره من البشر أن يكون قصده ذلك لله وحده، وإذا قصد الانسان الله تعالى فلا بد له أن يسلك الطريق الذي به يأذن الله سبحانه وتعالى أن يدعى إليه وإلا فالدعوة إلى الله بدون إذن الله هي أيضاً مرفوضة من الله وهي ليست دعوة إلى الله وإلا فكثير من الفلاسفة والحكماء من غير هذه الأمة دعوا إلى التوحيد الخالص ودعوا إلى عبادة إله واحد ودعوا إلى الانقطاع الى اله واحد ولكن لم يكونوا ماذونين بتلك الدعوة لا تعتبر دعوتهم تلك موصلة الى الله سبحانه وتعالى ولا منتسبة إليه بل لا بد أن يكون الداعي ماذوناً له في الدعوة من الله سبحانه وتعالى حتى النبي (ص) وصفه الله سبحانه بقوله «وداعياً إلى الله بإذنه» فإذاً الإذن من الله سبحانه وتعالى ضروري في أن تكون تلك الدعوة الى الله، لا يكفي أن يكون القصد من تلك الدعوة سليماً ومجرداً الى الله بينما لا يكون الداعية ممن اذن الله له بالدعوة فإنه إذا لم تبلغه دعوة الأنبياء يكون مثاباً على إخلاص نيته ولكن دعوته لا تكون دعوة الحق ولا تكون دعوة لله سبحانه وتعالى وذلك لانه لم يكن ماذوناً في الدعوة فلا بد إذاً أن يكون الداعية إلى الله سبحانه وتعالى ماذوناً من الله بالدعوة إليه.. ولا يكون ماذوناً بالدعوة إليه حتى يسير على النهج الذي رسمه الله سبحانه وتعالى لأنبيائه ورسله وللمؤمنين بشريعته في الدعوة إلى تلك الشريعة ويتأدب باداب تلك الشريعة ويتحلى بأخلاق تلك الشريعة ويكون في حقيقته داعياً إلى الله لا إلى هوىً عنده.. لا إلى رأى يحمله يدعو إليه بحجة انه هذا هو دين الله ثم يذهب فيكفّر من خالفه في ذلك برأي الذي أوجده هو بنفسه بحجة أن هذا الانسان الآخر يخالف دين الله، فرق بين مخالفة الدين وبين مخالفة رأي أوجدته لنفسي حتى لو كان هذا الرأي الذي أوجدته لنفسي يعتمد على أدلة من الدين لا يكون مخالف هذا الرأي مخالفاً للدين أو خارجاً من الدين حتى أجعل من هذا الرأي ديناً ادعو إليه فلو فعلت ذلك لكون من الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى وإنما هو دعوة إلى رأى هذا الرأى بسبب الدعوة إليه تحول صنماً.

الصنم لا يشترط أن تكون حجراً او شجراً أو حيواناً حتى أنبياء الله سبحانه وتعالى الذين أكرمهم برسالته وابتعثهم لبريته قد يحولهم الانسان أصناماً.. الذين يعبدون عيسى عليه السلام مثلاً هؤلاء في الحقيقة حولوا السيد المسيح من كونه رسولاً إلى كونه صنماً..

اليهود وقد انكروا أي نبوة بعد موسى عليه السلام وبعد نبوة آل داوود حولوا أنبياء بنى إسرائيل الذين هم بين موسى وبين داود بل حولوا موسى ذاته صنماً يدعون إليه وينكرون إيمان من آمن بنبوة من جاء بعده من الأنبياء، إذاً الصنمية لا يشترط أن تكون حجراً أو ان تكون حيواناً أو أن تكون شجراً.. ربما كانت فكرة وربما كانت بشراً وربما كانت ملكاً.. لو إن إنساناً عبد ملكاً من الملائكة أو آله ملكاً من الملائكة او نسب إلى ملك من الملائكة المكرمين صفات الربوبية هو في الحقيقة قد اتخذ ذلك الملك صنماً وتكون دعوته حتى لو كانت تحمل جميع مفاهيم الشريعة الالهية ما دامت تعتمد على تاليه من ليس بإله فهي ليست بدعوة لله، حتى الرأي كما قلنا إذا أوجدته قد يكون نابعاً من الدين وقد يكون منتسباً للدين لكنني لو كفّرت من خالفني في هذا الرأي وعددته خارجاً عن ربقة الايمان .

في الحقيقة لا أكون في دعواى إلى هذا الرأي داعياً لله وإنما أكون داعياً إلى صنم هو هذا الرأي أو داعياً إلى شخصي أنا باعتباري صاحب هذا الرأي ولا أكون داعياً لله.. قد يدعو الانسان إلى فكر يحمله وقد يدعو الانسان إلى رأي يحمله لكنه لا يكفر من خالف رأيه أو نحى منحى لا يتلاءم والمنحى الذي سلكه ما دام ذلك الانسان لم يخرج عن حدود الشريعة ولم يفارق مقتضى الايمان وإلا لكانت دعوته ليست دعوة إلى الله وإنما دعوة من دون الله، نضرب مثلاً في هذا.

ما نشاهده بين أفراد المذاهب الاسلامية من محاولة إزراء أهل كل مذهب على اتباع المذهب الآخر بما لديهم من مسائل هي في الأعم الأغلب اجتهادية أوجدها فقهاء تلك المذاهب وربما كانوا مخطئين فيها أو مصيبين لكنها باعتبارها فروعاً لا تقتضي الخروج عن ربقة الاسلام، مثال ذلك موضع السجود أو طهارة موضع الصلاة.

من فقهاء المسلمين يعتبر الطهارة في موضع القيام أي موضع الرجلين حين القيام يشترط فيه ان يكون طاهراً وأما سائر مواضع المصلى كموضع السجود أو موضع الجبهة فلا يشترط فيه أن يكون طاهراً وإنما يكتفي فيه بأن لا تكون نجاسته متعدية...

مذهب آخر لا يشترط طهارة موضع القيام وإنما يشترط طهارة موضع السجود ويكتفي في سائر مكان المصلى بان لا تكون نجاسته متعدية، يأتي هذا الفريق فيشنع على ذلك الفريق بأنكم تجيزون السجود على العذرة.. ويأتي هذا الفريق ويشنع على هذا الفريق بانكم تجيزون الوقوف على العذرة.. طبعاً النتيجة ماذا ؟.. هي اختلاف الكلمة وتشتت الصف ؟ أضرب مسالة أخرى من المسائل التي ربما يكثر الاختلاف فيها بين الناس.

الزوجة مباحة لزوجها لكن القدر المتيقن من الاباحة هو المواقعة في القبل.. المواقعة في غير القبل موضع خلاف واجتهاد بين الفقهاء فمنهم (يعني هذا ليس منحصراً في الشيعة أو في غير الشيعة فقط) مثلاً من غير الشيعة من يقول بأن المواقعة في دبر المراة حرام، ومنهم من يقول حرام تنزيهي والحرمة التنزيهية في مصطلح الأحناف بمعنى الكراهة المغلظة في مصطلح الشيعة، فقهاء الشيعة أيضا يختلفون في المسالة منهم من يقول بالحرمة ومنهم من يقول بالكراهية المغلظة وكل فقهاء المذاهب نجدهم يختلفون في هذه المسالة..

يأتي مثلاً شخص من مذهب آخر فيقول أن الشيعة يبيحون نكاح المراة في الدبر مع أن لا يوجد أحد من الشيعة أن يقول بالاباحة بالمعنى الخاص لأن الاباحة بالمعنى الخاص هي تساوى الطرفين ليست هناك مرجوحية من جهة.

ما من فقيه من فقهاء الشيعة إذا لم يقل بالحرمة يقول بانه مكروه كراهة مغلظة وهذا هو عين ما يقوله فقهاء غير الشيعة بانه حرام تنزيهي لأننا كما قلنا أن مصطلح الحرمة التنزيهية في أصول الحنفية معناها الكراهية المغلظة في أصول الشيعة.. لماذا ؟ تفرقة بين المسلمين وإضعافاً لصفوفهم.

طبعاً الدعوة بهذه الطريقة لا تكون دعوة إلى الله سبحانه وتعالى لو كان الداعي مخلصاً في وجدانه انه يريد التقرب بها إلى الله لأنه خالف أمر الله في قوله تعالى «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» وقوله تعالى «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» هذا الأمر كما ينطبق في المذاهب الاسلامية أيضاً ينطبق داخل البناء الشيعي فلو أن فئة من الشيعة مثلاً اجتهدت اجتهاداً معيناً ثم رات ان كل من خالفها قد خرج عن خطة الدين واقامت دعوتها على ذلك فهذه الفئة حتى لو كانت مخلصة لله سبحانه وتعالى لا تكون دعوتها دعوة الحق فإن ما تحدثه من الفرقة في صفوف المسلمين أعظم من الخير الذي تزعم أنها تريد ان تحققه لهم...

الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى إذاً يجب أن تكون سائرة على النهج الذي يريده الله سبحانه وتعالى لعباده والنهج الذي يريده الله لعباده هو الدعوة إلى جوهر الشريعة وإلى التوحيد الخالص فلا تدخل إلى جوهر الشريعة وإلى التوحيد الخالص فلا تدخل فيها الأفكار والاشخاص والأفراد مهما عظم تلك الأفراد وتلك الشخصيات إلا أن تكون تلك الشخصيات ممن أمر الله بالدعوة لها على نحو قطعي فإنه لا يعقل أن يؤمن إنسان بالله ويتمكن من العمل بشريعته ما لم يؤمن بأنبيائه واوصيائه.

أما إذا كان العمل بالشريعة والايمان بالله لا يتوقف على شخص من الاشخاص فإن الدعوة إليه ومحاربة من خالفه بحجة أن هذا هو الغرض العيني على المسلمين لا تكون دعوة الحق وإنما هي دعوة من دون الله.. دعوة إلى فرد من أفراد الأمة مثلاً هذا لا يكون دعوة إلى الله... يصح الدعوة إلى أفراد الأمة وتصح الدعوة إلى علماء الأمة على أن لا يؤدى ذلك إلى حد تفسيق المسلمين بعضهم لبعض والى حد تكفير المسلمين بعضهم لبعض وإلا كانت الدعوة صنمية وليست إلهية... الدعوة الالهية هي التي يكون جوهر الدعوة فيها والمقصد الأسمى فيها هو الله سبحانه وتعالى..

الداعية الحقيقي هو من يدعو الناس إلى العمل بأحكام الاسلام.. الداعية الحقيقي هو من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والآمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستدعي على ذلك الداعي أن يعرف ما هو المعروف وما هو المنكر وإلا ربما نهى عن معروف ودعى إلى المنكر فإن الجاهل كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم كخابط ليل ما يفسده أكثر مما يصلحه فإذاً لا بد من عنصر العلم في موضع الدعوة..

من أراد أن يكون داعية إلى الله سبحانه وتعالى عليه أن يتعلم شريعة الله وعليه أن يدرس شريعة الله وعليه أن يدرس العقائد التي يريد الله سبحانه وتعالى الدعوة إليها والأحكام التي لا يسع الانسان المسلم مخالفتها وهي ما ثبت أنها من جوهر الدين لا ما ثبت أنها من اجتهاد المجتهدين وكلام المتفقهين فإنه مثلاً عندما تكون المسالة خلافية بين الفقهاء فليس لك أن تلوم إنساناً عمل بخلاف ما تعتقده أنت لأن هذا بالاضافة إلى أنه ليس من جوهر الدين يؤدي إلى تفرقة صفوف المسلمين مثال ذلك من يذهب إلى حرمة زيارة القبور إذا كفّر من زار القبور هل كان مخلصاً في دعوته إلى الله.

هل هناك نص صريح من أية محكمة أو سنة متواترة أو إجماع من المسلمين على حرمة زيارة القبور حتى يكون مخالف هذه الفتوى مبدعاً في الدين أو مرتكباً للكبيرة أم أنه اجتهاد في المسالة بني على نصوص يعتقد المفتىء بموجبها أنه يفهم من ظاهرها أو من تأويلها حرمة زيارة القبور فتحرم زيارة القبور عليه وعلى متبعيه، لكن هل له أن يبدع المسلمين ويكفّر المسلمين أو ليس أن من اجتهد في مسالة فقد أباح لغيره أن يجتهد في قباله وكذلك ما يحدث من بعض المسائل الشقاقية بعض جهلة الشيعة في بعضهم البعض بسبب اختلاف الفقهاء في مسالة ما..

بقية المحاضرة في العدد القادم